الكبرياء العاري

بقلم كامل العبد الله

كانت الصغيرة تتأمل الصغار يلعبون ، يتدافعون ضاحكين .. صاخبين .. وهي هنا واقفة ، لم تفكر ان تلعب معهم ، ان تشاركهم بهجة اللهو المنتشي .. من اين لها ان تفكر ، ان تطمح ؟

خطر لها ان تقترب الى واحدة اذهلها ثوبها الجميل بألوانه الزاهية ! كيف تصنع اثواب الصغار ، هذه الاثواب المضيئة ؟ وهي تود لو تلمس طرفه ، تتحسسه ، تنعم بمسه !!

واقتربت : كانت عيناها القلقتان تتساءلان .. تلتمسان .. وتراجعت .. ارتدت وجلة .. ولكنها اعتادت ان لا تتراجع ، ان لا تستسلم ..

ان حياتها اقسى من الانكفاء الحيي ، الهروب المنهزم .. محال يستطيع المحرومون أن ينهزموا . الهزيمة تعني الفناء للمحرومين ، ونداء الحياة فيهم يضج قويا . يهزمون القدر ولا ينهزمون ..

الصغيرة لم تكن تعي كل ذلك ، ولكنها كانت تعيشه ، كانت تقتات به .. عنادها الدائب مرتكز بقائها .. بعنادها تعيش : تأكل وتشرب ، وتنتزع حريتها .. تتشرد ولا تستسلم ..

وعادت الفتاة الصغيرة المحرومة تسأل وتلح ، بنظراتها تسأل وبنظراتها تلح ، تريد ان تلمس ذلك الثوب الزاهر المضيء ، تود ان تشم وروده ... ورود في ثوب لا في حديقة .. عجبا ! من زرع الطبيعة في الكساء الضاحك ؟ .

وتبسمت :

ظنته حكاية سحر ، لمحت بخيالها وراء الورود يد جنية ساحرة ، مشت باصابعها القادرة الى ثوب الصغيرة الجميلة فزرعت فيه وردة اثر وردة .

ومشت جريئة الى الالوان المشرقة . ومن جديد ارتدت وجلة ، وترددت قبل ان تعود . وكادت تبكي ..

وبكبرياء المحرومين حبست دمعتها : كانت اصوات الصغار تستثيرها ، كان صراخهم في وجهها يستفزها ، وكانت سخريتهم تلذع جلدها باسواط العذاب .. اسواط التحدي .

وكادت تصرخ مستنجدة ، خطر لها ان تلتجيء الى الجنية الساحرة ، تمنت لو تجد تلك الجنية ، لو تتحدث اليها ..

أليست قلوب الجن اكثر رحمة من قلوب الانس ؟ الا ترحمها وهي الفتاة الفقيرة ؟ الا تحول ثوبها البالي الى ثوب جديد زاه ؟ الا تزرع فيه الورود المضيئة ؟

ردها الى الواقع سقوط جسد وصراخ فتاة . قفزت مذعورة .. حاولت ان تنقذ الفتاة ، بل الورود الزاهية ، خافت على الورود تتمرغ في التراب ، ورأت مناسبتها الذهبية : هي فرصتها لتلمس الكساء المسحور .

ولكنها تريثت ، صفعتها من جديد نظرات الاحتقار ، لاحقتها بعنف سخرية الكبرياء من بنات النعمة .

واستمر صراخ الصغيرة ، صراخ عذاب اليم ، ولم يقترب اليها احد ، تركتها رفيقاتها في الارض .. لم تحاول واحدة رفعها من سقطتها ، ونظرت الى دم في ساقها .. جرح يسيل منه الدم ... والطفلة مذعورة ... ورفيقاتها ذاهلات حذرات ..

اتتدنى الكبرياء الى مواطىء القدم ؟! محال ..

وسعت الصغيرة الفقيرة ، وتكومت يقظة عند قدمي الفتاة : نسيت رغباتها العابرة ، لم تسع الى الثوب تلمسه .. فاتها ان تتحسس الورود او تتشمم عبيرها .. لا هم لها الا ان تنقذ الجرح الدامي ، يجب ان يكف الدم يسيل ..

ومشت يداها الى بقايا ثوب يلف بقايا جسد ، وانتزعت مزقة منه : بسهولة انتزعتها .. انه مهلهل النسج .. خائر القوى ..

من ثوبها اخذت ضمادة للقدم المدماة ، وفرحت . كان فرحها عظيما . لقد تبسمت لها الصغيرة .. تبسم لها الكبرياء الموروث ، الكبرياء الجريح .. وتلاقت مشاعر الطفولة في اروع بوح : تجاوب انساني ، وعرفان جميل ، في مشاركة غنية مسعدة .

ما اقسى ان يبدل مبدل عالم الصغار السعيد ، قسوة تبلغ الجريمة ساعة تمشي الفوارق الى جنان الطفولة المبراة .

ونهضت الفتاة الجريح ، اتكأت على الجسد الهزيل ووقفت .

لم تأنف هذه المرة من ملامسة الانسانة التعيسة ، لم تبعدها الكبرياء عن الثوب القذر واليد الملطخة بالشقاء ..

وجمدت الفتاة المترفة ، اذهلها ما ترى .. وما تحس .. تحس برعشة خفية مرحة تمشي اليها من اليد الرحيمة .. اليد المعروقة البائسة ..

وتنظر الى الثوب الذي كان ممزقا مهترئا فترى عجبا : ما اروع هذه الورود .. واحدة بعد ثانية ، وما ابدع هذه الالوان .. اي يد ساحرة وزعتها بفن وخلقتها بفتنة ؟!

وتتلمس ما حواليها .. انها واقفة .. بمفردها واقفة .. وترى الى الفتاة الفقيرة ، الى عينيها : بريق عجيب .. وهالة من نور تعصب الرأس الصغير ..

وسرعان ما تركتها ، ومشت الصغيرة الفقيرة ، في الفضاء مشت ، ودب الى اذنيها نغم سماوي يواكب الطفلة السعيدة ، وعشرات من الملائكة الصغار ..

ورفعت يديها تود اللحاق بها ، ولكنها سمرت مكانها ..

وصرخت ، فلم يسمعها احد ، ونظرت الى رفيقاتها فوجدتهن عاريات الا من ثياب مهترئة ممزقة ..

كامل العبد الله